شعراء الديباجة

أدب البارودى وشعره

بمناسبة انقضاء مائة سنة على مولده

للأستاذ أحمد الزين

تتمة

أما شاعرية البارودى فقد قدمت لك أنها صياغة عصور غابرة، ووليدة بيئات منقرضة، إذ لم يُسبَق بنهضة أدبيّة عما فيها ذوقه العربيّ، ولم ينشأ فى بيئة عربية ترعرع فيها فنه البيانى؛ بل كان هو باعث تلك النهضة بعد أن لم تكن، ومُطلِع ذلك النور بعد أن خبا، والمجلى فى حلبة البيان الذى لم يسبقه أحدٌ قبله وجاء على أثره مَن بعده، ومكوّن تلك البيئة بعد أن كانت مصر قبله وفى صدرٍ من عهده خالية من الأدب والأدباء والشعر والشعراء إلا القليل ممن لا يُعتدّ بشعرهم، ولا ينبغى أن تسجّل أسماؤهم فى الشعراء إلا تسجيلا تاريخياً لمن أراد أن يكتب سجلا جامعاً، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

إلا أن تلك النهضة التى بعثها من مرقدها لم تكن نهضة تجديدية فى الأفكار والمعانى؛ وتلك الوثبة التى وثبها لم تكن وثبةً انقلابية فى تصوير ما حوله من المشاعر والاحساسات؛ وهذه الخطوة التى خطاها لم تكن خطوة تطوّرية فى مسايرة روح العصر وتوجيهه إلى ما يريده الشاعر لأمته وبلاده من المثل الأعلى فى الآمال والأغراض، بل كانت نهضةً بيانية لا أكثر، متعلقة بجودة العبارات، واختيار الألفاظ، وإحكام النَّسْج، ومتانة التركيب، والجرى على مذهب القدماء فى الفخامة والجزالة؛ فلا تكاد ترى فى شعره ما يعبر عما حوله من أحاسيس أمته وأوطانه، إلا القليل مما تراه منتثرا فى ديوانه؛ وسبب ذلك يرجع إلى أن شاعريته كما قدمتُ لك من صياغة الكتب والدواوين، وصناعة هؤلاء الشعراء المتقدمين؛ فكان يعيش بشعره فى عصرٍ غير عصره، وكان أشبه بالعاشق المولَّه الذى يجالس القوم بجثمانه، ويكلمهم بلسانه، وهو مع معشوقه وسالبِ لبِّه بروحه ووجدانه

وهنا ينبغى أن نشير إلى مخالفتنا لما رآه بعض كتاب النقد فى شعر البارودىّ، فقد قسّم الشعر إلى أربعة أقسام، وهى شعر التقليد الضعيف، وشعر التقليد القوى، وشعر الابتكار الذى يوحيه الشعور بالحرّية القوميّة، وشعر الابتكار الذى يوحيه الشعور بالحرية الفردية؛ وذكر أن شعر البارودى فى طليعة النوع الثالث، وهو شعر الابتكار الذى يوحيه الشعور بالحرية القومية

وعندى أن شعره لا يعدو النوع الثانى من هذه الأنواع الأربعة، وهو شعر التقليد القوى؛ وهذا هو سر شغفه بمحاكاة الفحول من شعراء المتقدمين ومعارضتهم فى مشهورات قصائدهم كأبى نواس، والشريف الرضى، وأبى فراس، والبوصيرى، وغيرهم؛ وفى رأيى أنه لم يبلغ أحدا من هؤلاء، وإن كان قد قاربهم بعض المقاربة، وذلك لأنه مقلِّد، والتقليد كما تحدثتُ اليك من قبل أضعف من الأصل مهما يبالغ المقلد فى إحكام المشابهة وإتقان المحاكاة. وإنك لتقرأ القصيدة من شعره فلا توقظ عاطفة من عواطفك، ولا تحرك شجناً من أشجان نفسك، ويخيَّل لك أنك سمعتها قبل ذلك عدة مرات؛ والحق أنك قد سمعتها، فان لم تكن قد سمعتها بألفاظها، فقد سمعتها بمعانيها

والأرانب. وأوصل من شباك معمله خرطوماً ينتهى طرفه فى الصندوق برشاشة. وقعد هو فى معمله عند طرف الخرطوم الآخر يحرك مِضخّة ينبعث من تحريكها فى الصندوق ضباب من البشلات قتّال يستنشقه ما فى الصندوق من حيوان، وقام كوخ يحرك المضخة نصف ساعة كل يوم طيلة ثلاثة أيام. وعند فوات عشرة أيام وجد ثلاثة من الأرانب تتنفس سريعاً فى طلب هذا الهواء الغالى الذى عجزت رئاتها المريضة عن إعطائها إياه. ولم تمض خمسة وعشرون يوماً حتى كانت هذه الخنازير قامت هى أيضاً بنصيبها المتواضع من هذه المأساة المجيدة فمات الواحد تلوَ أخيه مسلولا

ولم يذكر لنا كوخ كيف صنع لاخراج هذه الحيوانات من صندوقها وقد عمّه وعمّها الوباء، ولم يحدثنا ما الذى صنعه بهذا البيت الصغير الذى بناه بعد أن ابتلت حيطانه بهذا الرشاش الفتاك. ولعمرى لقد أضاع هذا البحّاثة الهادئ التواضع بصمته عن ذكر هذا فرصة ثمينة لمن همّه الفخرُ وطلب المباهاة

(يتبع)

أحمد زكى

فى شعر العبّاسيّين وغيرهم من المتقدمين ، حتى أن قصائده التى قالها فى صفة الحروب وأهوالها ، واليادين وأبطالها ، وافتخاره بالاقدام إذا حَمِيَ الوطيس واشتد الخوف وجاشت نفس الجبان لا تراها تتميز إلا فى القليل النادر بمعان جديدة وأفكار مستحدثة عن شعر المتقدمين فى صفة ذلك ، حتى إنك لو لم تعرف أن قائل هذا الشعر هو البارودى لحسبتَ أنه شاعر عباسى يصف إحدى غزوات الرشيد أو المأمون فى خراسان أو فى بلاد الروم . وإلا فأى جديد مستحدث يلفت ذهنك اليه ، ويجتذب قلبك نحوه ، تراه فى قوله :

فلا جوّ إلا سهمريٌّ وقاضبٌ ولا أرضَ إلا شمّرى وسابحُ
ترانا بها كالأسد نرصُد غارةً يطير بها فنق من الصبح لامحُ
فلست ترى إلا كماةً بواسلا وجُرْدا تخوض الموت وهى ضوابح
تُغير على الأبطال والصبح باسمٌ ونأوى إلى الأدغال والليلُ جانح
بكى صاحبى لما رأى الحرب أقبلت بأنيابها واليوم أغبر كالح
ولم يك مبكاه لخوف وإنما توهم أنى فى الكريهة طائح
فقال اتئد قبل الصِّيال ولا تكن لنفسك حربا إننى لك ناصح
ألم تر معقودَ الدخان كأنما على عاتق الجوزاء منه سرائح
وقد نشأتْ للحرب مُزنة قَسْطَل
لها سَهَلٌ بالنيـــةِ راشح
فلا رأى إلاّ أن تكون بنجوةٍ فانك مقصود المكانة واضح
فقلت تعلّم إنما هى خُطّة يطول بها مجدٌ وتخشى فضائح
فقد يهلك الرِّعديد فى عقر داره
وينجو من الحتف الكَمِيُّ المشايحُ
الخ .....

وقد كان ينبغى أن يتميز شعره فى صفة الحرب عن شعر المتقدمين ، ولا يحاكيهم فى كثير ولا قليل من معانيهم فيها ، وذلك لما باشر من وقائعها ، وخاض من غمراتها ، وتعرض لمخاوفها ، ولما امتلأت به نفسه من حبها ، والتمدح بالاسراع اليها ، ولما تميزت به الحروب فى عصره عن الحروب فى العصور الماضية ، واختلفت فى صُوَرها وآلاتها وترتيبها عن الحروب أيام تقسيم الغزاة إلى شاتية وصائفة

ومما يعاب على البارودىّ ويؤاخذ به قلة شيوع الشعور الوطنىّ والاحساس المصرىّ فى شعره ، وخلو قصائده إلا فى القليل النادر من العاطفة القومية ، وإنما استثنيتُ القليل النادر لما له فى ذلك من القصائد اليسيرة التى قالها وهو فى منفاه بسرنديب كقوله من قصيدة :

هل من طبيب لداء الحب أو راق
يشفى عليلا أخا حزن وإرقاق
قد كان أبقى الهوى من مهجتى رمقا
حتى جرى البين فاستولى على الباقى

وفيها يقول :

يا روضة النيل لا مستك بائقةٌ ولا عدتك سماءٌ ذات اغداق
ولا برحتِ من الأوراق فى حلل
من ســتدس عبقرىّ الوشى برّاق
يا حبّذا نَسَمٌ من جوّها عَبِقٌ
يسرى على جــدول بالماء دفّاق
تَرعَى جيادى ومأوى جيرتى وحِمَى
قومى ومنبتُ آدابى وأعراقى
أصبو اليها على بُعــد ويعجبنى
أنى أعيش بهــا فى ثوب إملاق
وكيف أنسى ديارا قد تركتُ بها
أهلا كراما لهم ودّى واشفاق
فيــا بريد الصَّبا بلغ ذوى رحمى
أنى مقيم على عهــدى وميثاق
وأنت يا طــائرا يبكى على فنن
نفسى فداؤك من ساقٍ على ساق
أذكرتنى ما مضى والشمل مجتمع
بمصر والحربُ لم تنهض على ساق
الخ .....

ولعلّ السرّ فى عدم شيوع ذلك الشعور فى شعره وقلة ظهور هذه العاطفة فى قصائده يرجع إلى أنه سليلُ عائلة من الأتراك الذين يرون أن سيادتهم فى مصر لا تتمّ إلا بالترفع عن مخالطة أهلها ، وعدم مشاركتهم فيما يشعرون به من آلام وآمال ، ويرون أن الاتصال بطبقات الشعب تَسْلُبُ فى عزّتهم ، وانتقاص من سيادتهم

واليك طرفاً من قصيدته التي استقبل بها مصر حين عاد من منفاه، قال :

أبابلٌ رأى العين أم هذه مصر ... فاني أرى فيها عيوناً هي السحر
نواعسٌ أيقظن الهوى بلواحظ ... تدين لها بالفتكة البيض والسمر
فان يك موسى أبطل السحر مرة ... فذلك عصر المعجزات وذا عصر
بنفسي وإن عزت عليّ رهينةٌ ... من العين في أجفان مقلتها فترُ

الخ ....

فأنت ترى أنه لم يزد في استقبال وطنه على ذكر ما فيه من الجمال النسويّ الشائع بين جميع الأمم، والمشترك بين مختلف الشعوب، ولم يقل في قدومه إلى مصر إلا ما يقوله قادمٌ على أيّ بلد من البلاد المشهورة بهذا النوع من الجمال، وإن لم يكن وطنه. ثم انظر هذا الاحساس الوطنيّ المتدفق، والعاطفة المصرية الفياضة في قصيدة شوقي التي استقبل بها مصر حين عاد من منفاه بالأندلس، إذ يقول :

ويا وطني لقيتك بعد يأس ... كأني قد لقيتُ بك الشبابا
وكلُّ مسافر سيؤوب يوماً ... إذا رُزق السلامةَ والايابا
ولو أني دُعيتُ لكنت دِيني ... عليه أقابل الحتم المجابا
أدير اليك قبل البيت وجهي ... إذا فُهتُ الشهادة والمتابا
هدانا ضوءُ ثغرك من ثلاثٍ ... كما تهدى المنوّرةُ الركابا
وقد غشّى المنارُ البحر نورا ... كنار الطور جلّلت الشعابا

وقيل : الثغر، فاتأدت، فأرست

فكانت من ثراك الطُّهر قابا

وقوله وهو في منفاه أيضا :

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني اليه في الخلد نفسي
وهفا بالفؤاد في سلسبيل ... ظمأ للسواد من (عين شمس)
أحرامٌ على بلابله الدَّوْ ... ح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل إلاّ ... في خبيث من المذاهب رجس

وهنا قد يخطر بذهنك أن تسأل عن العوامل المؤثرة في شعر شوقي هذا الأثر الظاهر، وميزته عن شعر البارودي هذا التميز الواضح، وجعلته فياضاً بهذه العاطفة القومية، مفعماً بتلك الاحساسات الوطنية، فلا تكاد تقرأ قصيدة من قصائده خالية من ذكر مصر والفخر بماضيها، والألم لحاضرها والأمل القوي في مستقبلها؛ ولا تبعد عن الحق كثيراً إن قلت إن شوقي لم يُجد إجادة تامة إلا في هذه الأغراض؛ وأقول في جواب هذا السؤال إن سر ذلك يرجع إلى مخالطة شوقي زعماء الوطنية المصرية وصلته القوية بهم، وحرصه على توثيق أسباب المودة بينه وبينهم، وملازمته لمجالسهم بالليل والنهار، فلا عجب إن شاركهم بعد ذلك في الآراء والأفكار، وشاطرهم في الآمال والأوطار . . .

أضف إلى ذلك خدمته الطويلة للخديو السابق عباس الثاني؛ وقد كان من كراهته للمحتلّ الغاصب، وحبّه الاستقلال بالسلطة والانفراد بالحكم، ما هو معروف مشهور

وهذا جواب إجماليٌّ أرجئ تفصيله إلى فصل آخر عند الكلام على شاعرية شوقي

أحمد الزين

٥٠٦٥.

وزارة المالية

مصلحة المناجم والمحاجر

تطلب مصلحة المناجم والمحاجر للعمل بمنجم الذهب بالسكري الواقع بالصحراء الشرقية الجنوبية رئيساً للكتبة له دراية تامة بالأعمال الحسابية ومسك الدفاتر حسب الطريقة المتبعة بمصالح الحكومة والحسابات التجارية وكذا أعمال المخازن والمستخدمين

ويشترط في طالب الالتحاق بهذه الوظيفة أن يكون مصري الجنس وحائزا لدبلوم التجارة العليا أو ما يماثلها وأن يكون قد مارس هذه الأعمال فعلا لمدة كافية

وسيمنح من ينتخب الماهية التي تراها المصلحة مناسبة لشهادته وخبرته العملية

وتقدم الطلبات على الاستمارة رقم ١٦٧ ع . ح بعنوان حضرة صاحب العزة مراقب مصلحة المناجم والمحاجر بوستة الدواوين في ميعاد لا يتجاوز يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٥ ؟